تفسير
سورة النمل

للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحلقة الأولى

تفسير سورة النمل

وهي مكية

{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)}

ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال:

{تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ}، أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق!

آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم!

آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار!

آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، على طبق ما كان ويكون!

آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأفعاله الكاملة!

آيات عرَّفتْنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين صونًا لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصَفَتْ سرائرُهم، فلهذا قال:

{هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يَكْثُر مدعوُّو الإيمان، فهل يُقبل من كل أحد ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال:

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها وشروطها وواجباتها، بل ومستحباتِها، وأفعالِها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها باستحضار قرب الله وتدبرِ ما يقول المصلي ويفعله.

{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} المفروضة لمستحقيها.[1]

---

(١) قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٦٠].

{وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل. ويقينُهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها.

وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير:

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ} ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها.

{زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} حائرين مترددين مُؤْثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقًّا والحق باطلًا.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ}، أي: أشده وأسوأه وأعظمه.

{وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ}، حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة،[٢] وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

---

(٢) قال تعالى: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزخرف: ١٥].

{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتتلقفه وتتلقنه ينزل من عند:

{حَكِيمٍ} يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

{عَلِيمٍ} بأسرار الأمور وبواطنها، كظواهرها.

وإذا كان من عند {حَكِيمٍ عَلِيمٍ}، عُلم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي هو أعلم بمصالحهم منهم؟

الحلقة الثانية

{إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨)}

{إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه واصطفاءه برسالته وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين وسار بأهله من مدين متوجهًا إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم:

{إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} أي: أبصرت نارًا من بعيد.

{سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ} عن الطريق.

{أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}[٣] أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه ومشتدٌّ بَرْدُهُ، هو وأهله.

{فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} أي: ناداه الله تعالى وأخبره أن هذا محل مقدَّس مبارك، ومن بركته أن جعله الله موضعًا لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.[٤]

---

(٣) قال البغوي: قرأ أهل الكوفة: {بشهابٍ} بالتنوين، جعلوا القبس نعتًا للشهاب، وقرأ الآخرون بلا تنوين على الإضافة، وهو إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الشهاب والقبس متقاربان في المعنى، وهو العود الذي في أحد طرفيه نار، وليس في الطرف الآخر نار. وقال بعضهم: الشهاب هو شيء ذو نور، مثل العمود، والعرب تسمي كل أبيض ذي نور شهابًا، والقبس: القطعة من النار.

(٤) {من في النار} أي من في طلب النار، وهو موسى، {ومن حولها} هم الملائكة. وقيل العكس: {من في النار} أي من في النور، وهم الملائكة، {ومن حولها} هو موسى. انظر تفسير البغوي.

وفي سورة طه: {إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)...}

{وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} عن أن يظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

{يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)}

{يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤].

{الْعَزِيزُ} الذي قهر جميع الأشياء وأذعنت له كل المخلوقات.

{الحَكِيمُ} في أمره وخلقه.

ومن حكمته: أن أرسل عبده موسى بن عمران الذي علِم اللهُ منه أنه أهلٌ لرسالته ووحيه وتكليمه.

ومن عزته: أن تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

{وَأَلْقِ عَصَاكَ}، فألقاها.

{فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ}، وهو ذكر الحيات سريع الحركة.

{وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}[٥] ذُعْرًا من الحية التي رأى على مقتضى الطبائع البشرية، فقال الله له:

{يَا مُوسَى لَا تَخَفْ}، وقال في الآية الأخرى: {أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ} [القصص: ٣١].

{إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله خصوصًا عند زيادة القرب منه والحُظْوة بتكليمه.

{إِلا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ}، أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوَحشة بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من الجُرْم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا مَن ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب فبدَّل سيئاتِه حسناتٍ ومعاصِيَه طاعاتٍ،

---

(٥) قال البغوي: {وَلَمْ يُعَقِّبْ} لم يرجع، يقال: عقّب فلان إذا رجع، وكل راجع معقِّب. وقال قتادة: ولم يلتفت.

فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعًا وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)}

{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} لا بَرَص ولا نقص، بل بياض يَبْهَر الناظرين شُعاعه.

{فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} أي: هاتان الآيتان _ انقلاب العصا حية تسعى وإخراج اليد من الجيب فتخرج بيضاء _ في جملة تسع آيات تذهب بها وتدعو فرعون وقومه.

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} فسقوا بشركهم وعُتُوّهم وعلوهم على عباد الله واستكبارِهم في الأرض بغير الحق، فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ودعاهم إلى الله تعالى وأراهم الآيات.

{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً} مضيئة تدل على الحق ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس.

{قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا:

{مُبِينٌ} ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب: الآيات المبصرات والأنوار الساطعات، تُجعل من أبين الخُزَعْبِلَاتِ، وأظهر السحر!؟ هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة.[٦]

{وَجَحَدُوا بِهَا} أي: كفروا بآيات الله جاحدين لها.

{وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}، أي: ليس جحدهم مستندًا إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم بصحتها!

{ظُلْمًا} منهم لحق ربهم ولأنفسهم، {وَعُلُوًّا} على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل.

{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرَّقهم في البحر وأخزاهم وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.[٧]

---

(٦) أوقح السفسطة: أقلها حياءً.

(٧) قال تعالى: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم: ٤٥].

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)}

يذكر في هذا القرآن وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير كما قال تعالى: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} الآية.(٨)

---

(٨) النَّفْش الرعي بلا راعٍ. وروي عن ابن مسعود وابن عباس: كَرْمٌ قد أنبتت عناقيده، فأفسدته، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تَدْفَع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}.

{وَقَالَا} شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}، فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة وأنهما كانا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون ثم فوقهم الأنبياء،(٩) وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحًا عظيمًا، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم

وعلق البخاري قول الحسن البصري: فحمد [اللهُ] سليمانَ ولم يَلُمْ داود، ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه وعذَّر هذا باجتهاده.

وفي الحديث المتفق عليه عن عمرو بن العاص مرفوعًا: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)).

(٩) قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩].

من ربه، فلا يفخر بها ولا يُعْجَبَ بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا، فلما مدحهما مشتركَيْنِ خص سليمان بما خصه به لكون الله أعطاه ملكًا عظيمًا، وصار له من الماجَرَيَات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم، فقال:

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ}، أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلَّم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانُ}، وقال شكرًا لله وتبجُّحًا بإحسانه وتحدُّثًا بنعمته:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ}، فكان عليه الصلاة والسلام يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة للنمل، كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غيرِ سليمان عليه الصلاة والسلام.

{وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} أي: أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤته أحدًا من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} [ص: ٣٥]،

فسخر الله له الشياطين يعملون له كلَّ ما شاء من الأعمال التي يعجَز عنها غيرهم،[١٠] وسخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر.[١١]

{إِنَّ هَذَا} الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به.

{لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

---

(١٠) صلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاةً مكتوبةً، فضم يده، فلما صلى قالوا: يا رسول الله! أحدث في الصلاة شيء؟ قال: ((لا، إلا أن الشيطان أراد أن يمر بين يدي فخَنَقْتُه حتى وجدت برد لسانه على يدي، وأيم الله لولا ما سبقني إليه أخي سليمان لارْتُبِطَ إلى سارية من سواري المسجد حتى يَطِيف به ولدان أهل المدينة، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل.)) قال الألباني في صفة الصلاة (ص٨٤): أخرجه أحمد والدارقطني والطبراني بسند صحيح.

(١١) قال تعالى: {وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [سبأ: ١٢]. قال البغوي: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ} أي: أذبنا له عين النحاس.

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)}

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}، أي: جُمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور، فهم يوزعون يدبَّرون ويردُّ أولهم على آخرهم، وينظَّمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحِلّهم وتَرْحالهم، قد استُعد لذلك، وأُعِدَّ له عُدَّته.

وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عنه، قال تعالى: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ}[١٢] [ص: ٣٩]، أي: أعط {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره.

{حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ} منبّهة لرفقتها وبني جنسها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل، إما بنفسها ويكون الله قد أعطى النمل أسماعًا خارقةً للعادة، لأن التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع، وأمرتهن بالحذر والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم

---

(١٢) قال المؤلف رحمه الله: {فَامْنُنْ} على من شئت، {أَوْ أَمْسِكْ} من شئت {بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه.

إنْ حطموكم فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه.

{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا} إعجابًا منه بفصاحتها ونُصْحِها وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: الأدب الكامل، والتعجب في موضعه وأن لا يبلغ بهم الضَّحِك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم جل ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزهون عن ذلك.(١٣)

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال:

---

(١٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. [خ]
وقال جابر رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم. [م]

{رَبِّ أَوْزِعْنِي} أي: ألهمني ووفقني.

{أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ}، فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلى والديه.

{وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} أي: ووفقني أن أعمل صالحًا ترضاه لكونه موافقًا لأمرك مخلصًا فيه سالمًا من المفسدات والمنقصات.

{وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ} التي منها الجنة.(١٤)

{فِي} جملة {عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}، فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم.

---

(١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عَمَلُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ من الدُّلْجَة، والقَصْدَ القصد تبلغوا» [متفق عليه]

فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماعه خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجًا آخر من مخاطبته للطير، فقال:

{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)}

{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ} دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية.

ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه!

أما العقلي: فإنه قد عُرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة،

ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي: فلو أريد هذا المعنى، لقال: وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده، قال ما قال، أو: فتش عن الهدهد، أو: بحث عنه، ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عيَّنها لها.

وأيضًا: فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعَفاريت ما يَحْفِرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر،[١٥] فكيف مع ذلك يحتاج إلى الهدهد!؟

وهذه التفاسير[١٦] التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويَغْفُل الناقل عن مناقضتها

---

(١٥) قال تعالى: {وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ} [سبأ: ١٢].

(١٦) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسًا، يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم

للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مُسَلِّمًا للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة

عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان، عليه السلام يومًا بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، {فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين}.

حدث يومًا عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: نافع بن الأزرق، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس، غُلبتَ اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ ترابًا، فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ، فيصيده الصبي! فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس لما أجبته! فقال له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمي البصر، وذهب الحذر! فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدًا!

المعاني التي لا تجهلها العرب العَرْباء، وإذا وجد[١٧] أقوالًا منقولة عن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقتْه قَبِلها، لكون اللفظ دالًّا عليها، وإن خالفتْه لفظًا ومعنًى أو لفظًا أو معنًى، ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلًا معلومًا مناقضًا لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد: أنَّ تفقُّدَ سليمانَ عليه السلام للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير.

{فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ}، أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيًّا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟

فحينئذ تغيظ عليه وتوعده، فقال: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا} دون القتل.

---

(١٧) أي: إذا وَجَدَ ذاك اللبيبُ الفطنُ أقوالًا...

{أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)}

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ}، ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلَّفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا.

{فَقَالَ} لسليمان: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ}، أي: عندي من العلم، عِلْمُ ما أحطتُ به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه.

{وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ} القبيلة المعروفة في اليمن.

{بِنَبَإٍ يَقِينٍ}، أي: خبر متيقن، ثم فسر هذا النبأ، فقال:

{إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة.[١٨]

{وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} يؤتاه الملوكُ من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقلاع، ونحو ذلك.

{وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}، أي: كرسيُّ مُلْكِها الذي تجلس عليه عرش هائل، وعِظَمُ العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

{وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، أي: هم مشركون يعبدون الشمس.

{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}، فرأوا ما عليه هو الحق.

{فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}، لأن الذي يرى أن الذي عليه حق لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته. ثم قال:

{أَلَّا} أي: هلَّا.

---

(١٨) قال البغوي: كان اسمها بلقيس بنت شراحيل [وذكر قصة لها].

{يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، أي: يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النباتات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}.

{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ} أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له، لأنه المألوه، لِما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك.

{رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} الذي هو سقف المخلوقات ووسع الأرض والسماوات، فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يُذَلُّ له ويُخْضَعُ ويُسْجَدُ له ويُرْكَعُ.

فسَلِم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجَّب سليمان كيف خفي عليه، وقال مُثْبِتًا لكمال عقله ورزانته:

{قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)}

{سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا}، وسيأتي نصه.

{فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ}، أي: استأخر غير بعيد.

{فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} إليك وما يتراجعون به، فذهب به، فألقاه عليها، فقالت لقومها:

{إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}، أي: جليل المقدار من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت مضمونه، فقالت:

{إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، أي: لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري وأقبلوا إليَّ مسلمين.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، فإنه تضمن نَهْيَهم عن العلو عليه والبقاءِ على حالهم التي هم عليها، والانقيادَ لأمره والدخولَ تحت طاعته، ومجيئَهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام.

وفيه: استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.[١٩]

---

(١٩) كما أخرجا رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأَرِيسِيّين، و{يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذَ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تَوَلَّوا فقولوا اشْهَدُوا بأَنَّا مسلمون} [آل عمران: ٦٤].

فمن حَزْمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها، وقالت:

{يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي}، أي: أخبروني ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟

{مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}، أي: ما كنت مستبدئةً بأمر دون رأيكم ومشورتكم.

{قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ}، أي: إن رددتِ عليه قوله ولم تدخلي في طاعته، فإنا أقوياء على القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضًا لم يستقِرُّوا عليه، بل قالوا:

{وَالأَمْرُ إِلَيْكِ}، أي: الرأي ما رأيتِ، لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم.

{فَانْظُرِي} نظر فكر وتدبر.

{مَاذَا تَأْمُرِينَ}، فقالت لهم مقنعة لهم عن رأيهم ومبينة سوء مَغَبَّة القتال:[٢٠]

---

(٢٠) مغبة القتال: عاقبته ونتائجه.

{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا} قتلًا وأسرًا ونهبًا لأموالها، وتخريبًا لديارها.

{وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}، أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي غير سديد، وأيضًا فلست بمطيعة له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون على بصيرة من أمرنا، فقالت:

{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} منه: هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخدعه الهدية وتتبدل فكرته، وكيف أحواله وجنوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم.

الحلقة السابعة

{فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)}

{فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ} أي: جاءه الرسل بالهدية.

{قَالَ} منكرًا عليهم ومتغيظًا على عدم إجابتهم:

{أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ}، فليست تقع عندي موقعًا، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر عليَّ النعم.

{بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}، لحبكم للدنيا وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسولَ من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال:

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ}، أي: بهديتك.

{فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ}، أي: لا طاقة لهم. {بِهَا}.

{وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}، فرجع إليهم وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس:

{أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}، أي: لأجل أن نتصرف فيه قبل أن يُسْلِموا، فتكونَ أموالهم محترمة.(٢١)

---

(٢١) قال البغوي: اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها:

[١] فقال أكثرهم: لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها.

[٢] وقيل: ليريها قدرة الله عز وجل وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها.

[٣] وقال قتادة: لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد، فأحب أن يراه.

[٤] قال ابن زيد: أراد أن يأمر بتنكيره وتغييره ليختبر بذلك عقلها.

{قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)}

{قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ}، والعفريت: هو القوي النشيط جدًّا.

{أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ}، والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهابًا وشهران إيابًا، ومع ذلك يقول هذا العفريت: أنا ألتزم بالمجيء به على كِبَره وثِقَله، وبُعْده قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم الذي عند آحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن:

{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ}، قال المفسرون: هو رجل عالم صالح عند سليمان، يقال له: "آصَفُ بْنُ بَرْخِيَا"، كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى.

{أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالًا، وأنه دعا الله فحضر، فالله أعلم، هل هذا المراد أم أن عنده علمًا من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد؟

{فَلَمَّا رَآهُ} سليمانُ {مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ} حمد الله تعالى على إقداره وملكه وتيسير الأمور له.

و{قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}، أي: ليختبرني بذلك.

فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن هذا الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال:

{وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}، غني عن أعماله، كريم كثير الخير يعم به الشاكر والكافر، إلا أنَّ شُكْرَ نعمه داعٍ للمزيد منها، وكُفْرَها داعٍ لزوالها،(٢٢) ثم قال لمن عنده:

{نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا}، أي: غيروه بزيادة ونقص، ونحو ذلك.

{نَنْظُرْ} مختبرين لعقلها: {أَتَهْتَدِي} للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها، {أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ}.

---

(٢٢) قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧].

{فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)}

{فَلَمَّا جَاءَتْ} قادمة على سليمان عرض عليها عرشها، وكان عهدها به قد خلَّفتْه في بلدها.

و{قِيلَ} لها: {أَهَكَذَا عَرْشُكِ}، أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشًا عظيمًا، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟

{قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ}، وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل هو، لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفته، فأتت بلفظ محتمل للأمرين صادقٍ على الحالين، فقال سليمان متعجبًا من هدايتها وعقلها وشاكرًا لله أنْ أعطاه أعظم منها:

{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا}، أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه المَلِكة.

{وَكُنَّا مُسْلِمِينَ}، وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل: أن هذا من قول ملكة سبأ: وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنَّا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه.

قال الله تعالى: {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تَعْرِفُ الحقَّ من الباطل، ولكنَّ العقائدَ الباطلة تُذْهب بصيرة القلب.

{إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}، فاستمرت على دينهم، وانفرادُ الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم مِن أَنْدَرِ ما يكون، فلهذا لا يُستغرب بقاؤها على الكفر.

ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يَبْهَرُ العقولَ، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلسًا من قواريرَ تجري تحته الأنهار.

فـ{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً} ماء، لأن القوارير شفافة، يُرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء.[٢٣]

{وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا} للخياضة، وهذا أيضًا من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله لعلمها أنها لم تُسْتَدْعَ إلا للإكرام، وأنَّ مُلْكَ سليمان وتنظيمَه قد بناه على الحكمة، لم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء بعد ما رأت ما رأت، فلما استعدت للخوض، قيل لها:

{إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ}، أي: مملَّس {مِنْ قَوَارِيرَ}، فلا حاجة منك لكشف الساقين.[٢٤]

---

(٢٣) قال ابن كثير: "وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه."

(٢٤) قال ابن كثير: "والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبني بناء محكمًا أملس... وتمريد البناء تمليسه. ومارد: حصن بدومة الجندل. والغرض: أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله تعالى وجلالة ما

فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها.

و{قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولَّدة والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها على الدليل المعلوم عن المعصوم،[٢٥] والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم: الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير، والله أعلم.

هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله، عز وجل."

(٢٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مقدمة أصول التفسير: "فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغَثِّ والسمين، والباطل الواضح والحق المبين. والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وأما قول عليه دليل معلوم. وما سوى هذا، فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يُعلم أنه بهرج ولا منقود."

الحلقة الثامنة

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة أخاهم في النسب صالحًا، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده ويتركوا الأنداد والأوثان.

{فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}: منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ}، أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات.

{لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ} بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم.

{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين والتائب من الذنوب هو من المحسنين.

{قَالُوا} لنبيهم صالح مكذبين ومعارضين:

{اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ}، زعموا قبحهم الله أنهم لم يروا على وجه صالح خيرًا، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سببًا لمنع بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح:

{طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ}، أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم.

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} بالسراء والضراء والخير والشر، لينظر: هل تقلعون وتتوبون أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)}

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ} التي فيها صالح الجامعة لمعظم قومه:

{تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}، أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة حتى إنهم من عداوتهم:

{تَقَاسَمُوا} فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر:

{لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}، أي: نأتيه ليلًا هو وأهله فلنقتلنهم.

{ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ} إذا قام علينا وادعى علينا أنا قتلناه ننكر ذلك، وننفيه ونحلف.

{إِنَّا لَصَادِقُونَ} فتواطئوا على ذلك.

{وَمَكَرُوا مَكْرًا} دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفا من أوليائه.

{وَمَكَرْنَا مَكْرًا} بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين.

{وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ}: هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكرِ مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر؟ ولهذا قال:

{أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}: أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً}، قد تهدَّمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها.

{بِمَا ظَلَمُوا}، أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله وبغيهم في الأرض.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} الحقائق ويتدبرون وقائع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم: الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل: النجاة والفوز. ولهذا قال:

{وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.